واسع؛ ملحمي الحضور والخطوات.

في المدخل الذي كتبه غسان كنفاني لرواية أم سعد ـ والذي نعتبره مع الاهداء، والعنوان، وعناوين اللوحات، مصاحبات نصية، تمثل مداخل وقنوات مهمة، ودوالاً لها أهمية خاصة في قراءة النص واكتشاف علاقاته وحركاته الدلالية ومدلولاته ـ يصف غسان المخيمات بـ «مخيمات البؤس»[١٠٨]، وسيجرى على امتداد السرد الروائي، وعبر صوتين هما صوت الراوي وصوت أم سعد، أو صوت الاخيرة محمولاً على صوت الراوي، تعريفنا على المكونات المختلفة لهذه الصفة: «البؤس» والأسباب التي جعلت غساناً، والراوي وبطلة الرواية، بعده، يرون الى المخيمات وهي متسمة بهذه الصفة... وسنحاول اعادة بناء الاشارات الدالة على المخيم وبيوته، ثم نذهب، بعد ذلك، الى التعرف على أماكن أخرى، في المنفى، تقدمها الرواية في تضاد مع المخيم، ومع بيت أم سعد.

المخيم: هذا الحبس العجيب

تبدأ الرواية لوحتها الاولى «أم سعد والحرب التي انتهت» بالراوي واقفاً وراء نافذة بيته، في ذلك الصباح التعيس الذي انتهت فيه حرب حزيران ١٩٦٧ بهزيمة العرب التي جعلتنا «نطوي أنفسنا على بعضها كما تطوى الرايات»[١٠٩]، وفجأة، يرى أم سعد قادمة من رأس الطريق، فيقفز الى ذهنه سؤال من بين أسئلة كثيرة: «كيف تراها رأت المخيم حين غادرته هذا الصباح»[١١٠]. لا شك ان ما سبق سيدفعنا الى توقع رؤية للمكان ـ المخيم، محكومة بانعكاسات الحرب التي انتهت بالهزيمة، والتي كانت، مع اندلاعها، موضع أمل يحدو به اللاجئون والمنفيون بأن يعودوا الى وطنهم الذي اقتلعوا منه، ففقدوا بانتهاء الحرب، بالهزيمة، الوطن مرتين، وفقدوا الامل الذي راودهم طويلاً، غير أن هذا التوقع سرعان ما يتبدد ونحن نرى الى أم سعد وهي تدخل البيت، ثم، تسحب من صرتها الفقيرة التي كانت ألقتها في الركن «عرْقاً بدا يابساً»[١١١] هو عرق قطعته من دالية صادفتها في الطريق وتود غرسه قرب باب بيت الراوي، مؤكدة ان الدالية مثل الزيتون، لا تحتاج الى ماء، وأنها شجرة معطاءة، وأن الراوي في أعوام قليلة سيأكل عنباً... فمن أين تجيء أم سعد بهذا التفاؤل الذي يبدد توقعنا السابق لما يمكن ان تكون عليه رؤيتها للمكان، وللزمان أيضاً، أي رؤيتها للعالم التي تحدد رؤيتها لكل شيء... لن يمكث تساؤلنا هذا طويلاً، إذ يعرّفنا السرد بعد صفحة واحدة، بالضبط، على مصدر هذا التفاؤل، فحين يوجه الراوي سؤاله لأم سعد: «كيف كان المخيم اليوم؟»[١١٢] تنبثق الاجابات التي تكشف عن مصدر التفاؤل على الرغم من الاحساس العارم بالهزيمة: «بدأت الحرب بالراديو وانتهت بالراديو، وحين انتهت قمت لأكسره، ولكن أبا سعد سحبه من تحت يدي. آه يا ابن العم! آه»[١١٣]. ففي مقابل هذه الآهات المحبطة ثمة شعور بالقوة مصدره أن سعداً ـ ابنها ـ مع رفاقه من أبناء المخيم قد ذهبوا نحو الجبل كي يقطعوا الحدود: «وعاد ذراعها مرة أخرى يشير الى تلك الحدود»[١١٤]. وعلى هذا النحو لن نكون بإزاء رؤية واحدة الجانب، بل بإزاء رؤية جدلية، تماماً، يتضامن في بثها، عبر السرد، صوتا الراوي وأم سعد، فنرى الى المخيم وأمكنته وبيوته في واقعها، وفي سياق تحولاتها، وعبر انعكاسات المشاعر وهي تمر في قناة ذلك المنظور الرؤيوي.

ترى أم سعد ان المخيمات حبوس: «أتحسب أننا لا نعيش في الحبس؟ ماذا نفعل نحن في المخيم غير التمشّي داخل ذلك الحبس العجيب؟ الحبوس أنواع يا ابن العم! أنواع! المخيم حبس، وبيتك حبس، والجريدة حبس، والراديو حبس، والباص والشارع وعيون الناس... أعمارنا حبس، والعشرون سنة الماضية حبس...»[١١٥]. ولكنها في المقابل ترى أن سعداً «سيخرج من الحبس.